ثُلاثِيّة المَسِيح

الجزء الأوّل

عيسى ابن مريم

أيمن العتوم

٢٠٢٣م

تأليف
أيمـــن العتـــوم

تصميم وإخراج
خديجة عصمت العتريس
khadija@gulfinnovation.com

الناشر

الإبــداع الفكري

شركة الإبداع الفكري
للنشر والتوزيع - الكويت

الرقم المعياري الدولي « ردمك »
؟؟؟

رقم الإيداع : ؟؟؟

للشراء عبر الانترنت www.ebdaafekry.com

هاتف: 22675321 965+
فاكس: 22675365 965+
العنوان: ص.ب 28589 الصفاة 13146 الكويت

2023

جميع الحقوق محفوظة للناشر (شركة الإبداع الفكري) (يمنع النسخ أو التصوير أو النقل أو النشر في موقع الشبكة الالكترونية أو الاقتباس من هذا الكتاب أو أي استخدام آخر لمادته إلا بإذن خطي من الناشر لعدم التعرض للملاحقة القانونية)

ebdaafekry info@ebdaafekry.com ebdaafekry.com

تمت الطباعة في المطبعة الألمانية للطباعة والتغليف

إهداء ..

(٠)

وِلادة

لم يكنْ من شرّ قبل ظهوره العَلَنّي؛ كلُّ هذا الوباء المُستفحِل جاء من ذلك الظّلام. وقبل ملايين السّنين كان بإمكانه أن يقول كُلَّ ما يشعر به في أعماقه دون أيّ تردّد. وَحدَها قناعتُه بما يفعل، وإرداتُه الّتي لا تنكسر صَنَعَا منه أكبرَ قوّةٍ قادرةٍ على التّغيير في الوجود. لم تَرَ المخلوقاتُ في حياتها أَجْرأَ منه ولا أَفْصحَ ولا أشَدَّ جنونًا. أقسمَ أن يجعل الظّلام – الّذي جاء منه ثُمّ كانَه – يَعُمَّ العالَم، ومع أنّ ذلك كان ضدّ المشيئة الإلهيّة إلاّ أنّه استطاع أن ينجح، وأنْ يَبَرَّ بقَسَمِه ولو في الفانِية.

تهامَستِ الكائنات النّورانيّة فيما بينها: «ويلٌ لهذا الهالِك؛ واحسرتَى على مَصيره المَحتوم، كيف له أنْ يقف في وجه الحقّ الأعظم». رَمَقَها شَزْرًا بطرف عينَيه المُلتَهِبتَين، وصاح في وجهها صيحةً كُتِبتْ في دساتير الخَلق بماء الأبديّة: «خيرٌ لي أن أعيشَ في الجحيم بإرادتي على أن أعيشَ في النّعيم مَسلوبَ الإرادة».

تحاشتِ المخلوقات النّورانيّة ما انبعثَ مِنَ الدُّخان مِنْ بين شِدقَي ذلك الظّلام المُخيف، وتراجعتْ إلى الوراء مثل انطفاءٍ تدريجيّ لأشعّة شمسٍ تَهُمُّ بالغُروب، شعرتْ بالإهانة فحاولتْ أن تقول شيئًا، لكنّها انصرفتْ دون أن تنبسَ ببنتِ شفةٍ مُطمئنّةً إلى عَدالة القَدَر، وإلى غريزة التّسليم بكلّ شيءٍ الّتي فُطِرَتْ عليها.

أقسمَ الظّلام في وَجهِ خالقِه وهو يختار هُبوطه إلى العالَمَ السّفليّ: «أيّها الحقُّ الأزليّ؛ بعزّتك العالية لأجُرَّنَّ إلى الجحيم الّذي أهبطْتَني إليه كُلَّ البشريّة الّتي تباهَيتَ بها».

وانقطع الصّوتُ في الأعالي، ليبدأ الرّحلةَ هناك... هناك في العالَمَ البِكر، العالَمَ الخفيّ، الغامض، السّاحر، وربّما المُؤقّت. ومَنْ يدري: ربّما تسنح الفرصةُ يومًا من الأيّام لأولئك الهابِطين مرّةً للعودة من جديد!! قال الظّلامُ للجسد الطّينيّ: أنا رميتُ مِفتاح عودتي في بئرٍ ذاتِ قرارٍ بعيد، أمّا أنتَ؛ فالعودة مُمكنةٌ لكنّها تحتاج إلى تضحيات كبيرة!!

في الهُبوط تَحدَّثا طويلاً كعدُوَّيْن، وكصديقَيْن أحيانًا... جَمَعَهما مصيرٌ مُشترَك، ومعيشةٌ واحِدة. وعرفَ كلّ واحِدٌ منهما أنّ له عملاً يُؤدّيه. أمّا الطّينيّ فكان قليلَ العِلم، ضئيلَ المعرفة، عَديمَ الخبرة؛ فتخبّطَ يمينًا وشِمالاً، وارتجفَ كطفلٍ شريدٍ وهو يُواجه مُستقبلاً غامِضًا وحياةً مجهولة، ثمّ جرّب كُلَّ شيءٍ قبلَ أن يهتدي إلى ذلك الّذي ربّما ينفعه.. أمّا الظّلام فكان واسعَ المعرفة عميقَ الخِبرة؛ فمضى في الدّروب، يزرع أشجارًا من نار، ويدعو الباحَثين عن الظّلّ إليها..!!

اختار الطّينيّ أن يُقيم بعيدًا عن الظّلام، أوى إلى كهوفٍ تُذكّره بخطيئته، لكنّ الظّلام لم يتركْه وحده، ولم يَرُقْ له أنْ يَدَعَه ليعيشَ بأمانٍ حتّى في شَظَفه؛ فراح يتحرّشُ به، ويُقسم له من جديدٍ أنّه لا يُريد له إلاّ الخير؛ وخاصّة أنّهما الآن حتّى وإنْ كانا مُختلفَي الطّباع فلا غِنَى لأحدهما عن الآخر في ظلّ هذه الظّروف القاسية الّتي ألجأهما إليها العالي. وعليهما أن يَتعايَشا بعيدًا عن أُكذوبة العداوة الّتي تشتعل في أعماقهما.

كان طعم الهزيمة ما يزال مُرًّا على لسان الطّينيّ فأعرض عن الظّلام، وأدار وجهه إلى الجهةِ الأخرى، لكنّ الظّلام كان قادِرًا على أن يظهر

في كلّ جهةٍ يُولّي إليها الطّينيُّ وَجهَه؛ إنّه ليس مادّة؛ إنّه روحٌ تسري؛ بل هو أبعد من ذلك؛ إنّه ذرّات سابِحة تأخذ هيئة المحلّ الّتي هي فيه. مكّنه ذلك من حياةٍ أطول، وظهورٍ أوسع، وانتشارٍ أسرع.

تعاقبتْ دهورٌ طويلة لا يعلم إلاّ الله طُولَها الفاحِش... نَسِيَ الطّينيّ من أينَ هبط، أمّا الظّلام فظلّ ذاكِرًا... استطاع أن يدعو كلّ النّاسين إلى مَملكته، أطاعه طينيّون كثيرون... مشوَا خلفَه مُغمَضي العُيون مَسلوبي الإرادة... كان نِداءٌ ما في داخلهم يدعوهم إلى اتّباع بوصلة الظّلام، والطّرق الّتي يعبرها... في بعض المُنعرَجات كان الصّوت يخفُت قليلاً فيُصابون بالهلع مِمّا يفعلون، وفي لحظات العودة إلى الوعي كان الصّوت يرتفع مرّة أخرى وبلحنٍ أجمل، وموسيقى أشدّ عذوبةً؛ فيتبعون الظّلام من جديد وهم يترنّمون على إيقاع خطواتهم نحو الهاوية.

أدرك الطّينيّ أنّ السّقوط من الأعالي، يتّخذ مسارًا جديدًا؛ إنّه السّقوط من السّقوط نفسه إلى الجحيم، لكنّ هذا الإدراك لم يمنعه من مُتابعة صوتِ الظّلام القويّ في داخله... في السّديم المُوغِل في الغياهب المُتراكِمة كان يظهر بعض النّور من بين الدّياجِي، يقترب شيئًا فشيئًا حتّى يبدو واضِحًا فينكشفُ الخِداع، وتَتَبَدَّى الحُجُب... فيُحاول الطّينيّ أن يتدارك هذا الإيغال في الدّروب النّافِذة إلى الجحيم، غير أنّ صوتَ الظّلام يعلو من جديد، فيتبعه الطّينيُّ اتّباعَ الفريسة للضّبع.

تكاثرتِ الضّباعُ وريثةُ الظّلام بعد ذلك كثيرًا، وفاقَ أعدادُها أعدادَ الطّينيّين، ولربّما كان لكلّ طينيّ عشراتُ الضّباع إنْ لم تكن المئات منها لكي تُحافِظ على تَقهقُرِه المُتتابِع... انهارتْ كلّ المبادِئ الّتي مُزِجَ بها جسدُ الطّينيّ في الأعالي، ورويدًا رويدًا بدأ يحلّ محلّها الوَخَم والقذارات والرّذائل الّتي زرعها الظّلام فيه!

بعد عهودٍ مُتتابعة تفاقمَ النّسيان أكثر... ونُسِيَ العهد الّذي أُخِذ في ملكوت السّماء على الطّينيّ... وانطفأتْ مَمالك النّور... واعتلى الظّلامُ العرشَ سيّدًا على كلّ المخلوقات، وعُبِدَ من دون الله، وانتشرت الأفاعي الّتي وَلَدَها في كلّ جُحر؛ حتّى إنّكَ لو رفعتَ حَجَرًا لوجدتَ تحته أفعى تُقدّم لكَ العِظات، وتدعوك إلى اتّباعها!! وكان لا بُدّ من ميلادٍ جديدٍ... كان لا بُدّ لطينيّ آخر أن يحمل الرّسالة، ويُخلّص كلّ هذه الحُشودِ المنتشرة انتشارَ السّحاب الكثيف في السّماء الغائمة من ذلك الظّلام المُستكِنّ في أعماقهم!!

بدا العالَمَ ضائعًا، تائهًا، يتأرجحُ مثلَ عَصفٍ يابس... شريدًا في الطّرقات... حزينًا يكاد يَهلِك من أساه... يتخبّط، ويهذي، ويشتُمُ، ويتصنّع القُوّة، يهدُرُ مثل الرّعد ثمّ يهوي مثلَ حجرٍ من أعلى قمّةٍ جرداء. وكلّما ازدادَ ضَنَكُ العالَمَ وتفاقمتْ مآسيه امتلأ قلبُ الظّلام بالسّرور، وضجّتْ ضَحِكته حتى جلجلَ صداها في أعماق الوديان المهجورة المنتشرة في مجاهل الأرض الثّكلى.

لكنّ المريضَ لا بُدّ له أن يشفَى ولو طال مَرَضُه، ولكلّ داءٍ دواء، فما دواء هذا العالَمَ المُتعَب، المُمدّد في الطّين يكادُ يلفظُ آخرَ أنفاسِه؟!

والغائبُ لا بُدّ له أن يعودَ ولو طال غِيابه؛ فمتى يعود النّور الغائب ليهزمَ الظّلام المتجذّر في كلّ نَسَمة.

والعالَمَ ينتظر؛ ينتظرُ فارسًا، أو ينتظر مُخلّصًا، أو ينتظرُ قائدًا، أو ينتظر شيئًا، أو ينتظرُ كُلّ شيء... وكُلُّ الطّينيّين مُجمِعون على أنّهم ينتظرون قادِمًا ما؛ فمن تُراه يكون؟!

أتمّ الزّمانُ دورته على الأرض.. نسلَ من الجسد الطينيّ الأوّل نورانيّون قبَسوا النّور من الرّسول الأعظم. امتلأ بهذا النّور قلبُ ثلاثة

إخوة جاؤوا من رَحِمٍ واحدة، تنازعَهم المُحِبّون فيما بعد، وادّعى كُلُّ فريقٍ حَقَّه في حَبيبِه. المُدّعون بالحُبّ كانوا الأشدَّ حرصًا على قَتْلهم؛ لِمَ؟! هل لأنّه من الحُبّ ما قتل!! أمْ لأنّ الظّلام حينَ يَستحوذُ على القلوب والنّفوس يجعل للقُبلة الحرّى أنيابًا، وللّمسةِ الحانيةِ مخالبَ!!!

تمتّعَ الظّلام بصفةٍ لم يتمتّع بها أيُّ طينيّ، ففي حينَ حملَ الطّينيُّ كلّ أنواع الأسلحة ليقهرَ أخاه ويُرغِمه على ما يُريد، ويَبطِشَ به، ويُريقَ دَمَه بداعٍ أو بدونه؛ لم يكنْ يحمل الظّلام من سلاحٍ سِوى الكلمة؛ كان ذكيًّا، قادرًا على الإقناع، ومُحاوِرًا من طِرازٍ فريد، والأغرب من ذلك أنّه لم يكنْ لِيكلَّ أو يملَّ من حِواراته ومُحاولاته، حتّى إنّه تعرّض بهذه الحِوارات العجيبة لأولئك الّذين أيّدهم النّورانيّ الأعظم، وعَصَمَهم من فِتنته؛ فلم يكنْ ذلك ليمنعه من المحاولة معهم؛ كأنّهم أغرار!!

ذاتَ مرّة همسَتْ أفعى من بناتِ الظّلام لأختها الرّاقدة إلى جانبها في انتظار مَهمّتها: «ليتَ الطّينيّين يتعلّمون من أَبينا الأوّل إصراره على تحقيق أهدافه، وعدم اعترافه بالعجز والنّكوص مع أنّه يعرف النّهايةَ مُسبقًا». نهرتْها أختُها قائلةً: «يا حمقاء؛ لو فَعَلوا ذلك لَعادوا إلى عَليائهم»!!

انتظر كُلُّ الهالِكين مُخلِّصَهم الموعود، كُلُّ طائفةٍ كانتْ تَحلُمُ بمخلّصها بمعزِلٍ عن الأخرى؛ أمّا الإخوة الثّلاثة فانتظروا الحقّ لِيَبدؤوا عملهم. عرفوه وآمَنوا به واتّبعوا النّور الّذي جاء به، وظلّوا على أمانتهم، لا يضرُّهم كيدٌ، ولا يَفُتُّ في عَضُدِهم أذى. فالأكبر حُوربَ كعدوّ، وصُدّ عن سبيله كشيطان، وظلّ مُتمسِّكًا بحبل الحقّ حتّى ارتقى. وأمّا الأوسط فلم يُمهِلوه أكثر من ثلاث سنوات ليُسلِموه إلى القَتَلة؛ لكنّه لم يُنهِ العهدَ بأتباعه فبشّرهم بأخيه الأصغر؛ وواعدهم جانبَ النّعيم الأيمن. وأمّا الأصغر فعرفوا أنّه يحمل مِشعلَ أخويه السّابِقَين، فلم يتركوا وسيلةً بمساعدة

الظّلام لكي يُطفِئوا النّور الّذي جاء به إلاّ وفعلوها. نَجَحوا قليلاً... لكنّه لم يَتخلَّ عن المِشعل الّذي بينَ يديه حتّى ارتقى هو الآخَر.

اليوم أنا سأقصّ عليكم حكايةَ أَخَوَيّ وحكايتي؛ حكايتي بالذّات - لأنّها جاءتْ وسطًا بينهما - ستكون مثل العِقد الّذي يَنظِم هذه اللآلئَ جَميعَها. اليوم آتيكم لكي أتبعَ الأصغرَ وأُصدِّقَ الأكبر. اليوم جِئتُ لأقولَ لكم إنّني لم أمتْ، بقيتُ حيًّا إلى اليوم، رأيتُ كلّ ما حدثَ من بعدُ ومن قبلُ؛ أمّا ما كان قبلَ ولادتي فمن الحقّ؛ أَعْلَمَنِيهُ بِعِلمِهِ الأزليّ، وَأَرانِيهُ كما يرى أَحدُكم يدَه تحت ضوء الشّمس في رابعة النّهار. وأنا... أنا الأَصْدقُ فيمنْ سيُخبركم بما حَدَث... أعطاني الحقُّ مِيزةً على أَخَوَيّ، هما لن يَرجِعا حتّى تقوم السّاعة... أمّا أنا فأعود... ها أنذا بينَ أيديكم... وسأقصُّ الحكاية على مسامعكم؛ الحكايةَ كُلَّها...!!

(١)

هذا الدّمُ دمُ الشّهادة

في الأعالي لا تُوجد بداية ولا نهاية، يبدو الزّمن مثلَ كُرةٍ دُفِعتْ في اتّجاه اللانهاية، لا تعترضُ طريقَها أيّةُ قُوّة، فهي تسبح دون أيّ توقّف. أمّا في الأسفل فإنّ الزّمن هو بداية الألفيّة الرّابعة لِمولِدي!! والمكان هو الأرضُ ذاتُها الّتي أُهبِطَ عليها آدم وقد حافظتْ على شيءٍ من عهدها الأوّل مع كثيرٍ من التّغيّرات اللاّحقة.

أمر الله الملائكةَ أن تسجد أربعين عامًا قبلَ نزولي، وأنْ تُسبّح بحمده وهي ساجدة طَوال هذه الفترة. عددٌ لا أستطيع أن أُحصيَه امتثل لذلك، كنتُ أراهم وقد اصطفّوا مثل أقمارٍ مُتراصّة على هيئةٍ واحدة كأنّما شُكّلوا عليها لطول مُكوثهم. لم يجرؤْ أحدٌ منهم أن يرفعَ رأسه... وكنتُ أسمعُ صوتَ دعائهم واستغفارهم كأنّه أزيزُ النَّحْل؛ فيرتجفُ لذلك قلبي.

كانت الأرضُ آنذاك قد فاضت بالشّرّ حتّى لُوّثتْ عن بَكرة أبيها، وكنتُ أعرفُ أنّ ما تبقّى من عمرها قليلٌ، وقليلٌ جِدًّا، وإنْ كنتُ لا أُحصيه تمامًا. وكنتُ أعرف مَهمّتي جيّدًا من أوّل يومٍ رفعتُ فيه إلى بارئنا جميعًا. وكان إخوتي يُشفِقون عليّ مِمّا سيحُلّ بي بعد نزولي، وإنْ كنتُ أثبتَهم جَنانًا وَأرسخَهم إيمانًا، لِمَا أوحى به الله إليّ مِمّا سيحدث؛ وإنْ طلبَ منّي ألاّ أُحدّثَ به أحدًا في الأعالي.

قالوا سيُؤيّدك (جبريل)؛ يريدون أن يُطَمْئِنوني لاعتِقادهم أنّ بعض الخوف يُمكِنُ أنْ يتسرّب إليّ من هولِ ما هو قادمٌ، أبتسمُ في داخلي؛ لم يكنِ

الأمر جديدًا عليّ؛ فأنا أعرف جبريل من آلاف السّنين، لقد كانَ نَفختي الّتي جِئتُ بها بقدَر الله إلى الكون في ذلك الزّمن السّحيق!!

أربعون عامًا في عوالمَ لم ينكشفْ لي ولإخوتي إلاّ قليلٌ منها وهذه الملائكة لا تفترُ من التّسبيح والصّلاةِ عليّ؛ إنّ دأبَهم على الدُّعاء لَأمرٌ يبعثُ على العَجَب؛ أنا موقنٌ تمامًا أنّ عناية الله ستُرافقني في كلّ لحظةٍ، لكنّه أراد أن يُعلّمنا جميعًا: أنّ الدّعاءَ بينَ يديه أقدرُ على تَغيير ما كان وأثبتُ على تَحقيق ما سيكون!!

أخي (موسى) فَرِحَ فرحًا شديدًا أوّلَ ما رُفِعتُ إليه، كان في الطّبقة العالية المُقدّمة عند الله، لم أكنْ لأعرفَ له صورةً من قبل، ولم أفعل. كنتُ أراه بقلبي، وقصّ الله عليّ في الفانيةِ بعضَ قَصَصه لأجدَ في تلك القَصَص عزاءً جرّاء تكذيب بني إسرائيل لي وله من قبلُ. حَبَسَ أنفاسَه طويلاً وهو يستعدّ لاستقبالي، ثمّ فتح ذراعَيه أوّل ما رآني وقد بدا الإجهاد والتّعبُ على ملامحي، احتضنني طويلاً، وأرخى رأسَه الحَنون على صدري، شَدَّ على شفتَيه وكادَ يبكي متأثرًا بقدومي ونَجاتي. كان قد عَلِمَ بما عزم عليه العَشّارون والفريسيّون فظلّ يدعو الله أن يُخلّصني من مكائدهم الّتي خَبِرَها قبلي حتّى استجاب الله دُعاءَه. بدا لي وجهُه رغم سُمرته يفيضُ حيويّةً تَشوبُه حُمرةٌ لا أدري فيما إنْ كانَ مصدرُها انعكاسَ الدّمع في مقلتيه وهو يُجاهِدُ في إخفائه لحظةَ رآني أم لا؛ هو الآخر نجا من مكائدَ كثيرةٍ سابقة... دعوني أخبِرْكم بأنّنا جميعًا نحن الإخوة قد تعرّضْنا لهذه المكائد مِرارًا وتكرارًا.

وَفَدَ عليّ يومَ النّجاةِ كثيرون من إخوتي، أوّلهم كان ابنَ خالتي (يحيى) كان لا يزال بعضُ الدّم يقطرُ من رأسه، بكيتُ حينَ وقعتْ عيناي عليه، هدّأَ من رَوْعي وقال لي: لا تبكِ عينُكَ، هذا الدّمُ دمُ الشّهادة ما ظلّ

طريًّا إلى الآن إلاّ ليكون دليلاً على رفعة المنزلة. ثمّ راح يمسح بعضَه ويقرّبه من أنفي ويقول: أفرأيتَ أزكَى من رائحة الخلود يا أخي... نحنُ عشنا من أجل هذه اللّحظة؟! انحدرت الدّمعات من عَينَيّ مرّة أخرى بعد أن شممتُ الرّائحة الطّيّبة، اقتربتُ منه أكثر وأرحتُ رأسي على كتفه فسقطَ ما تناثر من الدّمع على جسده الطّاهر، ارتجفَ صدري مرّة واحِدةً؛ علا قليلاً ثمّ قبل أن يهبطَ من علوّه؛ ربّتَ على ظهري مُواسِيًا: هنا لا وَصَبَ يا أخي ولا نَصَب؛ لقد انتهَى العذابُ يا حبيبي، أتذكر يومَ النّهر، كان اليومَ الّذي جَرّ عليّ من بعده الويلات؟! ولكنْ ما قيمة ذلك الموتِ الّذي أذاقونيه بجانبِ هذا النّعيم العميم؟! انظرْ يا أخي: إنّ ساعةً واحِدةً في الخلود سوفَ تُنسيكَ قرونًا من العذاب الدّنيويّ البائد؛ أفنسيتَ؛ وأنتَ أبلغُنا موعظةً حين كنتَ تقول: «لأَنْ تُفني نفسكَ طمعًا في ما عند الله خيرٌ لكَ من أن تُحييها في حلاوة الدُّنيا ولو عشتَ مُخَلَّدًا...». تراجع خُطوةً إلى الوراء ثُمّ أخلى مكانه لآخرين استطالوا وقوفه بينَ يديّ، وأشاروا إليه أن يبتعدَ ليتقدّموا هم... بعضُهم بسطَ لي ردائَه، وبعضُهم قدّم لي الماء؛ ماءً لا كالماء، وبعضُهم ألبسني جُبّته، وعشراتٌ من إخوتي الّذين عاشوا معي في الأولى ولاقَوا فيها من الأذى ما لاقَوا اصطفُّوا في أدبٍ بالغٍ وراح كلُّ واحدٍ يطبع قبلةً عميقةً على جبيني ويُخلي مكانه لِمَن خلفه. عددٌ سَديميّ لا يظهر إلاّ حواشيه من الملائكة وقفوا يَحُفّون بنا وقد أشاعوا جَوّا من الطمأنينة والحُبور... فريقٌ من الإخوة الآباء جلسوا في حلقةٍ خاشِعين وراحوا يستطلعون ما حَدَث... طلبتُ منهم أن ينتظروا قليلاً حتّى يكتمل عِقدُنا جميعًا فأُخبرهم مرّة واحدة. كم أسعدني هذا الاحتفاءُ الملائكيّ الأخويّ المَهيب... تعالَتْ هَمَساتُ الإخوة وهم يُحاوِلون أن يعرفوا أنباء الغيب فيما دار هناك، وفيما سيدور... أخي إدريس كان في الطّبقة الرّابعة، حينَ سمع هَمَساتِهم رجاني أن أنتظر بضع سُويعات لأنّ أخانا الأصغر ما زال في

الطّريق، ولَحَاقُه بنا عمّا قريب، ولأنّ الجلوسَ معه سيكتسب بُعدًا آخر من الجَمال والفَرح. فاستجبتُ لطلبه.

كنتُ لا أزال أتعرّف حكايا بعض الإخوة الّذين لم تصلْني أخبارهم وأنا في الفانِية، حينَذاك انشقّ المكان عن نورٍ يحيطُ به، لقد صدقوا؛ جاءَ أصغرنا وأثيرُنا عند ربّنا... وبه اكتمل العِقد وخُتِمَت الجلسة. حَقًّا إنّها ليستْ أكثر من سُويعات تلك الّتي فصلتْ بين زمنَينا حتّى إنّني لم أتمكّن من إنهاء تَجوالي بين الآخرين والتّعرّف إليهم!!

المسافة بين السّماوات والأرض تبدو هائلة يعجز العقل البشريّ عن تخيّلها، وهي لا تُقطَع خلال أعمار البشر ولو جُمِعتْ أعمارُهم جميعًا، لكنّ هذه المسافة تبدو عند الله لا تزيد عن كلمةٍ واحدة!!

ما بين نَجاتي وهبوطي عهودٌ غائرة، وأزمنةٌ عَصِيبة، ودهورٌ خَلَفَ بعضُها بعضًا في حياةِ أممٍ كثيرةٍ عاشتْ ثمّ ماتت، ودولٍ عديدةٍ سادتْ ثمّ بادتْ، وممالك مُتطاوِلة ارتقتْ ثمّ انهارتْ، وحضاراتٍ عاليةٍ نشأتْ ثمّ هَلَكتْ... وهذا الزّمن ما بين العيش والموت، والسّيادة والإبادة، والارتِقاء والانهيار، والنّشوء والهلاك الّذي يبدو طويلاً عندَ الآدميّين هو عند الله ليسَ أطول من لَمْحِ البصر، وليسَ أبعدَ مِنْ رَدِّ الطّرْفِ!!

بعد النّجاةِ أُجلِستِ في رَبَضاتِ العَرش، وأراني الله من هناك كلّ ما فعل أتباعي من بعدي، لقد غيّروا وبدّلوا كثيرًا، إنّهم إنْ كانوا في حياتي لم يستجيبوا لي تمام الاستِجابة؛ فهل سيفعلون ذلك في وفاتي؟!! وأنا شهيدٌ عليهم في الدّنيا حينَ كنتُ بينهم، وشهيدٌ عليهم حين سأعود إليهم، وشهيدٌ عليهم يومَ ألتقي مَنْ رآني ومَنْ لم يَرَني في الآخرة...

أأقول إنّ آلاف السّنين هي الّتي تفصل بين الزَّمنَين؟! قد تكون، ولكنّ هذه الآلاف آلافٌ عندَ مَنْ؟! وفي أعمار مَنْ؟! وفي عُرْفِ أيّ المخلوقات؟! حَلُّ مُعضِلة الزّمن ما بين الغياب والعودة سيبدو لكم أبسط ممّا تظنّون؛ في الحقيقة هو ذات المسافة بين حرفٍ وآخر في (كُنْ)، وهو ذات المسافة بين الوجود والعدم في الدُّنيا، وهو كذلك المسافة ذاتَها بين صعودي وهبوطي!!

هبطتُ بعد أربعين عامًا من سجودِ الملائكة تمهيدًا لحادثة العودة في ذلك المشهد الجَليل. رافقَني في الرّحلة جبريل، وعددٌ آخر من الطّوّافين يصعبُ عليّ أن أُسمّيهم لكثرتهم وإنْ كنتُ أعرفهم واحِدًا واحِدًا لطولِ عهدي بهم. بدوتُ بين هذا الوفد السّماويّ مَلاكًا آخر ينضمّ إلى هذا الرّتل المُتقاطِر، ولم يكنْ من فرقٍ بيننا إلاّ في ذلك الّذي لو كانوا يملكونه مثلي لَما أهبطني الله وَلَدَعَا واحِدًا منهم أن يفعل ما وُكِّلْتُ بِفِعلهِ بدلاً منّي؛ دلّ ذلك على عَظَمة الصّانع، وعلى تكريمه لنا نحن الطينيّين منذ ذلك الصّراع الّذي ما زال قائمًا في الأرض، ولم يكنْ نزولي لحاجةٍ أكثرَ من أُنهيه، وأعيدَ إلى البشريّ روحه الّتي سُلِبتْ منه، وقلبه الّذي اختُطِف، ونفسه الّتي دُنِّسَتْ.

همس جبريلُ في أُذني حينَ رأى استئثاري بهذه المَهمّة ـ مهمّة الإصلاح ـ دونه: «تشابهتِ القلوب واختلفت القُدُرات»، شعرتُ أنّه يَغبِطنا نحن البشرَ على ما وهبنا الله من القدرة على الاختِيار، فرددتُ همستَه بمثلها: «اتّفقتِ الغايات وتنوّعت الأساليب، ونحن في الهمّ سواء». ابتسم، ولم يردّ.

واصلْنا نزولنا؛ بِمَ؟! تودّون أن تعرفوا؟! ما أسهلَ ذلك!! وما أيسر أن أُخبِركم!! أعني أنتم بشرَ اليوم. كان يُمكن ألاّ يُصدّق ما سأقول بشر الألفيّة الأولى أو الثّانية أو الثّالثة، أمّا بشر الألفيّة الرّابعة فسيعرفون لأنّهم سيرونني، وسيرونَ ما أفعل.

كنتُ أتّكِئُ على جناحَي ملكَينِ عن يميني وشِمالي، إذا خَفضتُ رأسي لأرى الكوكبَ الهاوينَ إليه تساقطَ الماء من فوقِ رأسي قَطَراتٍ من النّدى، وإذا رفعتُه تحدّر ذلك الماء شفيفًا كالجُمان. كان الملكان يترفّقان بي كأنّني ابنهما البارّ، ويَحدِبان عليّ حَدْبَ الأمّ على وحيدها، ويُشفِقان من أنْ يمسّني أيُّ سُوء. لم يكنْ من المَعقول في المفهوم البشريّ أنْ أقطعَ كلّ تلك المسافات من وراء بلايين المجرّات والكواكب في زمنٍ مَحدودٍ كالّذي قَطَعْناه، واللهُ لم يُقرّبْ لنا الأرضُ حيثُ تتيه فوقَها المجاميع البشريّة في سَعيها نحو الفناء، بل كُلُّ ما فَعَلَهُ هو أنْ غيّرَ معادلة الزّمن، فلم يعد زمنًا من ذلك الّذي يحكمُ به البشريّون الضّارِبون في الأرض تَعامُلهم. نعم كان الزّمن بيد خالقه، وكان يستطيع أن يقبضه فيقصُر، أو يَبسطه فيطول؛ ومَنْ غيره قادرٌ على ذلك!!

نزلتُ في الأردنّ عند النّهر؛ أعرف المكان جيّدًا، لقد طُفتُه في شبابي في وجودي الأوّل، وَتَنَقّلْتُ بين سُهوله وجِباله، ويدي تلّمسْتْ زهوره وخمائله، وتعمّدْتُ فيهِ أوّلَ النُّبُوّة، وأويتُ إليه ضارِعًا إلى الله قبلَ صُعودي. وسأعرّج على المكان الذي ولدتْني فيه أمي، قبل أن أتابع السّير إلى المسجد الأقصى.

النّهرُ أحبُّ البِقاعِ إليّ، وهو كذلك لابن خالتي يحيى، ولي معه ومعه ذكرياتٌ لا تُنسَى، حتّى إنّني في العالية كنتُ أستخبر الله عن أحواله، وأعرفُ أنّ هذا النّهر الّذي استعصَى على الجَفاف والنّسيان سيشهد الملحمة القادمة، وسأخبركم خبرَه وخبرَها في حينه.

قلتُ في نفسي وأنا أهمُّ بدخول المسجد الأقصى: «ما أشبهَ اللّيلةَ بالبارحة؛ الكَذَبة كانوا يَملؤونه بالأمس، وها هم اليوم يعيثون فيه كذلك فسادًا». تسلّلتُ كغمامةٍ شفيفةٍ إلى باحاته، كنتُ مأخوذًا بسحره الطّاغي،

ظلّ مُحافِظًا على روحه الملائكيّة مُذ بنائه، ولم يغيّرْ تَدنيسُ الضّالّين من طهارته شيئًا. أحسستُ أنّ كلّ حجرٍ مرصوفٍ في الطّرقات المُؤدّية إليه يبتسمُ في وجهي ويَبدؤني بالتّحيّة: السّلامُ عليكَ يا رَسولَ الله... السّلامُ عليكَ يا رَسُول الله... تبسّم جبريل وهو يسمعهم يُدثّروننني بالتّحايا على لغةٍ لم يكنْ ليفهمها أحدٌ سوانا. طَرِبَ الشّجر، وغنّى الطّير، ولانَ الحجر، وأزهرتِ الجُذوعُ اليابسة، ومالتْ من الشّوق الصّخور...

مضيتُ في طريقي قاصِدًا الموضع الّذي ابتدأت الملائكةُ بناءَه، كان جبريل لا يزال يمشي إلى جِواري، استَبقيتُه لأعرفَ مكان أوّل حجرٍ رُكِزَ في السّاحةِ بيده، حينَ أعلمني بمكانه عادَ إلى السّماء من حيثُ أتى وتَبِعه من خلفه الطّوّافون، وقال لي وهو يصعد كلمته الأخيرة: «إذا كان الله معك فَمَنْ يَكون عليك؟! وإنّها أمانةٌ ولا تُؤدَّى إلاّ بحبلٍ منه». جلستُ على الحجر، فأعادَ اللهُ إليَّ وُجودي، تمثّلتُ للرّائحين والغادينَ هُناكَ بشرًا سَوِيًّا بعدَ أنْ كنتُ قبلَ قليلٍ كالملائكة لا أُرى... ناديتُ في النّاس بكلمة الله، فالتفّوا حولي، جاؤوا من كلّ زاوية، ونَهَضوا إليّ من كلّ ناحية، واجتمع لديَّ عشراتٌ من الأطهار الّذين سأبدأ معهم الحكايةَ كاملة. كان أوّل العارفين بحقيقتي أشدَّ النّاس إيمانًا بي؛ رجلٌ وهبَ نفسه لخدمة المسجد كما فعلتْ أمّي من قبلُ؛ حينَ وقعتْ عيناهُ عليَّ ملأَ البِشْرُ وجهَه، وتقلّصتْ عضلاتُ وجهه لبرهة ثمّ ما لبثَ أنِ انفرجتْ أساريره من جديدٍ... شهقَ شهقةً عالية وهو مُتسمِّرٌ في مكانه قبلَ أن تنحلّ عُقدةُ رِجلَيه، ثمّ ركض باتّجاهي وأنا جالسٌ على الصّخرة حتّى إذا صار قريبًا جدًّا منّي هوى على قدَمَيّ فقبّلهما ومَسَّحَ خدَّيه بهما، وهو يهتف: «إذًا ها أنتَ يا حبيبَ الله... ها أنتَ... ها هي صُورتُكَ المنطبعةُ في قلبي منذُ عشرينَ عامًا». حتّى إذا هَمّ بالبُكاء لفرطِ فرحته أنهضتُه للحال، وقلتُ له: لا عليكَ يا (ذَكْوان). عقدتِ الدّهشةُ لسانه وجحظتْ عيناه حينَ

ناديتُه باسمه، لاذ بالصمتِ عاجِزًا، فأردفتُ: أنا أعرفُ أسماءَ حَوارِيَّ الجُدُد جميعَهم، أُخبِرْتُهم في الأعالي، ستكونُ أوّلَهم في الثّانية. هبطَ من جديدٍ على قدميّ فقبّلهما، ثمّ نهض وعيناه تتأرجح فيهما دمعتانِ فَرِحتان، ثمّ جلسَ قُبالتي، وكان أوعى السّامعين... ثمّ تقاطر أحدَ عشرَ كوكبًا إلى جانب ذَكْوان، جاءَ الأوّل فوقفَ بُرهةً؛ أرسلَ إليَّ نَظرَةٍ حانِيةً عميقةً وجلسَ، جاءَ الثّاني والثّالث إلى الحادي عشر فَعلوا مثلَ الأوّل، ملؤوني بالمحبّة. جَلَسُوا على الحجارة في حلقةٍ مفتوحةٍ في مقدّمة المُحتشِدين، عرفتُهم وعرفوني، كانتْ وجوهُهم طافِحةً بالنّور، لم تُفارقْهم بالبسمةِ وهم يُرسلون نَظَراتِهم الوالِهَة إليّ دون أنْ يَفُوهوا بكلمةٍ واحدة، بدا أنّ الأرواح تتلاقى من جديدٍ وتتآلف؛ أتريدون أن تعرفوهم!! هم: عُبادة، وشَدّاد، وثابِت، وسُوَيد، وبَكّاء، وحَكِيم، وبِشْر، وقُرّة، وقادِش، ومَعبَد، وهِلال... حتّى إذا استوفَى المكانُ قاصِديه، ولم يعُدْ من راغبٍ في المجيء إلاّ وجاء، جلس الحاضِرون كأنّ على رؤوسهم الطّير، ثمّ راحوا يفتحون قلوبهم لِما أقول؛ آنذاك بدأتُ الحكاية... أنا عيسى بنُ مريم!!

(٢)

غريزة البَقاء

وقفَ على الشُّرفة ينظر إلى المسجد من قصره العالي، رأى هناك في السّاحة أعدادًا كبيرةً من اليهود يذرعونها جيئةً وذهابًا، انتحى بعضُهم جانبًا وفتحَ بينَ يديه لُفافاتٍ وراح يقرأ منها وهو يهزّ جذعه في حركةٍ بندوليّة سريعة، ندّتْ من (هيرودس) ضحكةٌ عالية، وهتفَ بصوتٍ سمعه الحُرّاس الواقِفون في الرّواق وعلى حدود الشّرفات: «مجانين، هؤلاء اليهود مجانين... إذا كان إلهُهم موجودًا في تلك الشّقوق فلماذا يرقصون أمامه بهذا الشّكل الهستيريّ!!!»... خفتَتْ ضحكته قليلاً، وعبَّ من الكأسِ الّتي في يديه، ثمّ شدّ على طرفِ أسنانه، وهمس بينه وبين نفسه: «ما الورطة الّتي أوقعتْني فيها الإمبراطوريّة الرّومانيّة؛ أنا أحكم مجموعة من المجانين والحمقى». سكتَ قليلاً قبل أن يُتابع: «وَلْيَكُنْ؛ أنْ تحكم مجانين ومُغفّلين خيرٌ لكَ من أن تحكم المُتنوّرين؛ فإنّ الآخرين سرعان ما يسألونك سؤالاً وَقِحًا: مَنْ نَصَّبَكَ علينا مَلِكًا؟! ويُتبعونه بسؤالٍ أشدَّ وقاحةً: مِنْ أينَ لك هذا؟!». أخذ نَفَسًا عميقًا قبل أن يُعيدَ السّؤال الأخير على نفسه: مِنْ أينَ لك هذا؟! ويُجيب عنه بصوتٍ غاضبٍ مُجلجِل، رافِعًا يديه والكأس في يُمناه إلى الأعلى: مِنْ أينَ لي هذا يا سَفَلة!! أنا صنعتُه بنفسي، أنا أقمتُه بسيفي، أنا وطّدْتُه بحِكْمتي، ليس من فضل لا لقيصر ولا للآلهة في ملكي المُمتدّ هذا، أنا بَنَيْتُه بإيماني؛ إيماني بأنّه إذا بطَشْتَ فابطِشْ بأقرب النّاسِ إليك، فما الفضلُ في أن تقتل الأفاعي الّتي تعيشُ في الحقول البعيدة، وبعضُها ينامُ في سريرك ويتسرّب إلى سروالك؟! ثمّ صرخَ صرخةً عظيمةً فَزِعَ لها حَرَسُه، ورمى الكأسَ على جدار الشّرفةِ الممتدّ، فانكسرتْ، وسال نبيذُها الأحمر

على الجدار، ضَحِكَ وهو يُتابِعُ تقاطر النّبيذ سائِلًا: بمثل هذا الدّم تقوم الممالك، ليسَ مِنْ مَلِكٍ حقيقيّ ذلك الّذي يجعل في قلبه مكانًا ولو ضئيلاً للرّحمة!! سأستعدي الكلابَ على الثّعالب فأتخلّص منها، والذّئابَ على الشّياه فأقضي عليها، و... ولن أموتَ... نعم لن أموت؛ فأبنائي سيرثون مَملكتي، وسأعيشُ إلى الأبد، في آيةٍ صنعتُها أنا بجبروتي، وفي كلمةٍ سطّرتُها أنا بِعَظَمتي!!

وضع كلتا يديه على حافّة الشّرفة، تنهّد طويلاً، ثمّ أرسلَ بَصَره في الجموع البعيدة المُتزاحِمة عند الجدار، هتف وهو يهزّ كَتِفَيه ساخرًا: «لهؤلاء الحمقى ميزةٌ غير موجودةٍ في سواهم تجعلني أحتمل حماقتهم؛ إنّهم كَنْزُ مملكتي؛ لولا الضّرائب الّتي يدفعونها من الأموال الّتي يجمعها كهنتهم باسم الدّين لتعرّضتِ المملكة لزعزعةٍ أهمّ شروطِ قِيامها: القِطَع الذّهبيّة!!».

رفع رأسه إلى أعلى، عبّ هواءً عميقًا، خفضَ رأسه ثانِيةً، ثمّ أدار ظهره بحركةٍ عنيفةٍ للمسجد الّذي ظلّ مُحافِظًا على هيئته، وهيئة الغادين فيه، ودخل قصره يجرّ رداءه خلفه وهو يُزبِد بكلماتٍ غير مفهومة.

كانت الإمبراطويّة الرّومانيّة يومَها تُحكِمُ نفوذَها على أجزاءٍ واسعة من العالَم، بلادٌ لا يعرفُ إلاّ الله مُنتهاها، بسطَ عليها النّسرُ الرّومانيُّ أجنحتَه، ورفعَ فوقَ ترابِها رايتَه، وحَكَمها بقوّة رادِعةٍ لا تعرف الهَوادة.

قال هيرودس: أفضلُ شيءٍ لتُسيطرَ على شعبٍ يتمسّك بخُرافة الدّين، أن تبنيَ له معابدَ لإلهه، ولا تحشُرْ أنفكَ فيما يفعل؛ ولِمَ سأحشر أنفي فيما يَعبدون، إذا كانت روما تعبد أكثر من خمسينَ إلهًا؟!! دَعْهم يسجدوا لربّهم الّذي يخُصُّهم ولِيَدَعُوكَ أنتَ وشأنَكَ في الحُكم والنّفوذ، إذا كانوا يعطُونكَ الولاءَ كلّه في مُلكِك؛ فَلِمَ لا تبني لمعابدهم قِبابًا من ذهب!! لقد